ليت أيام الدراسة تعود !!

قمت ذات ليلة فى ساعة متأخرة ـ كالعادة ـ بعد أن قضيت وقتاً ليس بالقصير فى استذكار الدروس وتقدمت نحو غرفة النوم بتباطؤ وثقل شديدين ، أترنح تخاذلا لا نشوة ! وما أن ضمنى الفراش الناعم حتى شعرت بالدفء يتسرب إلى جسمى ويدب فى أوصالى، هذا الدفء أعاد إلى بعض النشاط وفتح مرة أخرى باب الفكر الذى قد كل منذ لحظات. وكنت أتمنى أن أحظى بنوم هادئ عميق يعوض ما فات من الليل ولكنه سوء حظى يأبى إلا أن يتركنى فريسة للافكار والتأملات التى تدفقت من كل جانب ، لتحرمنى من هذه السويعات الباقية من الليل ضناً بها على ، ولقد حاولت طردها من دماغى ـ حرصاً على وقتى ـ ولكنى لم أستطع بأى حال ، فاستسلمت أخيراً اليها ورأيت أن من الحق والواجب أن أطلق لها الحرية .

وبالرغم من هذه الثورة العنيفة ، التى عصفت بى فكادت أن تودى بالبقية الباقية من الصبر . أقول بالرغم من ذلك فقد وقفت مكتوف اليدين عاجزاً عن حل هذه المشكلة التى ليس لى فيها دخل وإنما هو النظام المدرسى المفروض علينا نحن الطلبة وليس من حقنا غير الطاعة العمياء وإن كلفتنا هذه الطاعة صحتنا الغالية!

ولكن سأنتصف لنفسى ـ ولو بذرة من الانتصاف ـ بالكتابة ، لتكون تعبيراً صادقا عن شعورى وشعور كل طالب فى المرحلة الثانوية وأكون بذلك قد شفيت نفسى ولو بالقليل مما تجد .

يذهب التلميذ صباح كل يوم إلى المدرسة حاملا رزمة ثقيلة من الكتب يحاول تخفيفها قدر المستطاع ليتمكن من الجرى وراء مختلف عربات الترام والاتوبيس وهو جد محظوظ لو استطاع أن يدس رجلا واحدة ولو بالقوة ويمد يده ـ الفارغة طبعاً ـ ليمسك أقرب ما يصادفه سواء فى ذلك قضيب الترام الحديدى أو يد أحد الركاب وسوف لا يحاسب أبداً فهى سنة الترام وخصوصاً عند الازدحام ـ فى الصباح ـ ثم تراه وقد تدلت رجله الأخرى ويده الثانية معلقة فى الفضاء تحمل الكتب ويظل على هذا الحال وقد كل ساعده وتقطعت أنفاسه ، حتى ترق له القلوب فيتبرع أحد الجالسين بانتزاع الكتب من يده . وهو مجبر على ذلك لأنه

وأخذ يفتك بالأفراد والمجتمعات وماتت روح الفضيلة.

يجب أن يكون أئمة المساجد وخطباؤها أطباء حاذقين . إلا أن الطبيب يداوى الأمراض الجسمية وخطيب المسجد وإمامه يداوى الأمراض الروحية والاجتماعية . ويجب أن يعرف إمام المسجد وخطيبه الأمراض الاجتماعية والخلقية التى تتفشى بين أفراد المجتمع. ويعرف الدواء الناجع لاستئصالها. يجب عليه أن يستحث العزائم ويوقظ الهمم . ويغذى الأرواح وأن يخلق من المرضى أصحاء ومن الشيوخ شباباً ومن الشباب روحا قوية تعف عن سفاسف الأمور وترتفع إلى مراتب الفضيلة وتسمو الى المجد .

يجب على إمام المسجد وخطيبه أن يكون صلة تعارف بين أهل الحى يأخذ من غنيهم لفقيرهم ومن صحيحهم لمريضهم وأن يكون أداة لفض المنازعات والخصومات ما استطاع الى ذلك سبيلا . وأن يكون مطلعاً على الحوادث الخارجية وما يحدث من أحداث لها صلة بالمسلمين .

ما أحوجنا إلى أن نفهم عامة الناس الأمور على حقيقتها من غير تدليس وأن نغرس فيهم روح التفانى والاخلاص فى سبيل الواجب . وأن لا نجعل للمبادئ الهدامة إلى أنفسهم سبيلا .

ونرجو من الله التوفيق والسداد .

فالح مسار

يعرف أنه لو تأخر دقيقة واحدة عن الميعاد المضروب لحرم يوما دراسيا كاملا ، والواقع أن هذا أكبر وأقسى عقاب للطالب المهذب . فهل بعد أن تكبد هذه المشقة وتناثر شعره وتساقط عرقه ، يأتى ليجد أبواب المدرسة تقفل فى وجهه ولدقيقة واحدة فقط ! ومع أنه لا ذنب له فى هذا التأخير ، والأساتذة كلهم يعرفون ذلك ، ولكنهم سيقولون ، ولاشىء غير ذلك ، هذا هو النظام المتبع ، فإذا وفق فوصل مبكراً فإنه سيقضى يوما وياله من يوم ، وخصوصاً فى حصص مابعد الغداء . فالأستاذ سوف لا يجد ما يشجعه على المضى فى الدرس وكذلك الطالب الذى لن يستمع لما يقوله أستاذه .

وأذكر منذ مدة قريبة ، أننى نمت فى الحصة الأخيرة وكان أن ضرب الجرس وخرج التلاميذ من المدرسة وأنا لا أزال أغط فى نومى متكئاً على الرحلة الخشبية الموجعة ، ولم أستيقظ إلا بواسطة الفراش الذى أتى لقفل الفصل .

ثم ينتهى ذلك اليوم بخيره وشره ومتاعبه ليرجع الطالب إلى بيته مساء وقد استبد به التعب ولكنه لن يجد وقتاً إلا مايكفى لخلع ملابسه واحتساء فنجان من القهوة أو كأس من الشاى ليعود إلى الاستذكار من جديد ، هذا إذا لم يكن له نشاط خارجى ، وبعد أن تنقضى فترة المذاكرة الأولى بسلام ، ينهض لتناول العشاء ثم الاستماع إلى بعض الموسيقى الخفيفة والأغانى ، وقد لايفتح الله عليه بشىء من ذلك فحطة الاذاعة قد رتبت أصناف الأحاديث لتذاع كل يوم فى هذه الفرصة الذهبية ! وتمر هذه الساعة وكأنها لحظة ثم تبدأ بعدها المذاكرة الثانية ، وما أدراك ماهى !

يجلس التلميذ على مقعده وما أن يستند عليه حتى يميل رأسه إلى الوراء ويتراءى له شبح الفراش الجميل المحبب بين لحظة وأخرى ، فيريد أن يستجيب اليه ولكن يحول دون ذلك سد من الكتب والواجبات اليومية التى يريدها أستاذ كل مادة ، كأن ليس لتلميذه سواها .

إن ذلك التعب المتواصل فى المدرسة ووجبة العشاء التى لم ترفع أوانيها بعد ، وهذا البرد القارس ليحمل الفيل على الركود والرقود ، ولكنه والحمد لله ، كما يظهر ، أقوى من الفيل روحا وأشد احتمالا . ولذلك فسيظل يكافح النوم حتى يصرعه أخيراً بمختلف الوسائل كالقهوة أو الشاى الثقيل ... وتنقضى الساعات الطوال وهو على هذا المنوال وكل فعله هو أن أطار البقية الباقية من النوم والكسل وبدأ يطالع بجد وقد تكدست حوله الكتب ، لايدرى ماذا يقدم أو يؤخر ...

وينتبه على دقات ساعة أو لسان صديق وإن كانت لديه ساعته الخاصة ، أن الوقت قد تأخر ولم يعد فى المذاكرة الآن أية فائدة خصوصا وقد انتصف الليل . حينئذ يقوم إلى الفراش يحاول إرجاع النوم المقلقل المسكين ، وكيف يعود وقد كوفح منذ قليل ؟

ولن تقف مشكلته عند هذا الحد بل تستمر حتى الصباح لأنه يجب عليه أن يبكر والطير فى وكناتها ، تماما كما يفعل امرؤ القيس إذا ذهب للقنص ، وهو بذلك يفخر على قومه ، أما نحن فكأننا فى أيام صيد لاينقطع ومع ذلك صامتون لأننا فى حالة نحسد عليها .

حقا إن مما يثير ثائرتنا وسخطنا ، أن نسمع من بعض الكبار والأساتذة وغيرهم ، يقولون بمرارة مفتعلة : « إن أيام الدراسة لذيذة ... آه ليتها تعود » . فهل هذا معقول ؟ أتريدون بقولكم هذا أن تخدعونا ؟ ولكنكم تخدعون أنفسكم . لأننا بعد تجربة ، لم نجد لتلك اللذة المزعومة أثراً . وأستطيع أن أقول والثقة تملأ نفسى : إنكم لم تتمنوا إلا الأيام الدراسة فقط ، لا الدراسة ذاتها أو بمعنى آخر (أيام الشباب) .

فحياة التلميذ اليومية إن هى إلا سلسلة متاعب لا تنتهى ولكننا قانعون صابرون ، مادامت فى سبيل أغلى ما تطمح إليه النفس وأثمن كنز يمتلكه الانسان ، ألا وهو العلم .

محمود توفيق